الأندلس فى نتاج شوقى ضيف

د. محمود على مكى

منذ بضعة شهور استقبل أستاذنا الجليل الدكتور شوقى ضيف عامه الأول بعد الثمانين، وكأنه يستأنف به شبابًا جديدًا، فهو لا يزال كالعهد به فتاءً ونشاطًا وقدرة على العمل، لم تتحيف منه هذه السنون الطوال التى قضى منها أكثر من نصف قرن فى جهد دائب متصل، فهو بحمد الله ما برح ممتعًا بقوة بدنه، وصفاء ذهنه، وقوة حافظته، وخصوبة إنتاجه، وكأنه فى مقتبل حياته: نسأل الله أن ينسئ له فى العمر، وأن يظل - كما كان دائمًا فى الجامعة وخارج الجامعة - أبا وراعيًا لأجيال من تلاميذه ومريديه الكثيرين، وحاملًا لمشعل الثقافة العربية، فالحق أن المرء لا يسعه إلا أن يطمئن إلى مستقبل هذه الثقافة مادام فيها أمثال الدكتور شوقى ضيف، ومن عرفوا كيف يتخذون منه قدوة ومثلًا.

وإنه لما يدعو للتفاؤل أن عشرات، بل مئات من تلاميذه منتشرون فى أنحاء العالم العربى كله من العراق والكويت، حتى المغرب الأقصى، فقد كان شوقى ضيف - شأنه فى ذلك كشأن بعض الشيوخ من أسلافنا العظام من أمثال الحافظ السلفى، وأبى حيان الغرناطى - من أولئك الذين نقرأ فى تراجمهم: «وطال عمره فأدرك الصغار فيه الكبار».والمقصود بذلك أنه قد تخرجت على يديه أجيال متعاقبة من التلاميذ، وأذكر أننى ما نزلت بلدًا عربيًا إلا والتقيت فى جامعاته ومؤسساته الثقافية من قادة الفكر عددًا ممن جلسوا من شوقى ضيف مجلس التلميذ، وممن ترك فى نفوسهم أثرًا باقيًا وذكريات لا تنسى.

بدعة التخصص الدقيق:

بدأت صلتى بالدكتور شوقى ضيف منذ أكثر من أربعين سنة، حينما التحقت بقسم اللغة العربية فى كلية االآداب.. وكأنى أراه آنذاك كما أراه اليوم تمامًا لم يتغير منه شىء.. فى قامته الفارعة، وبنيته المتينة، ومشيته الوقور، وصوته الهادئ ونظراته الجادة الصارمة التى سرعان ما تشف عن نفس طيبة خيِّرة، وخلق دمث ورقة عذبة، ولسان عفٍّ، وعلى مدى السنوات

الأربع التى استمرت فيها دراستى فى كلية الآداب أذكر أننا تلقينا على يد الدكتور شوقى ضيف محاضرات فى جميع مواد قسم اللغة العربية: العلوم القرآنية ومذاهب التفسير، والنحو، والبلاغة وتاريخ الأدب فى مختلف عصوره، والنصوص، والنقد، وكان يحاضر فى كل مادة من هذه المواد، فتكاد تحسب أنه قصر جهده عليها ولم يتخصص إلا فيها، ويقودنى هذا إلى الحديث عن بدعة «التخصص الدقيق» التى ابتليت بها الدراسة الجامعية خلال هذه السنوات الأخيرة، وهى أن يعكف الطالب الحديث التخرج فى دراساته العليا على فرع من فروع الدراسة لكى «يعمق» بحثه فيه و «يتخصص» فيه بزعمه، بغير أن يستكمل تكوينه العام فإذا به إذا اتجه إلى الأدب الحديث، لا يكاد يعرف شيئًا عن التراث الأدبى القديم، وإذا عمل فى ميدان الأدب الجاهلى، أو الإسلامى لا يخطر بباله، أن يتعرف الفنون الأدبية الحديثة من رواية أو مسرح، وإذا به إذا أعدَّ رسالة فى فن أدبى مستحدث وحاسبته على ما فيها من أخطاء لغوية أو نحوية أجابك بأن اللغة والنحو ليسا من شأنه لأنهما «خارجان عن دائرة تخصصه الدقيق»، وإذا كان عمله فى فن نثرى ووردت فيه أبيات من الشعر، لم يحسن نقلها أو أفسد روايتها قال لك إن علاقته بالشعر منقطعة وإن العروض مادة بعيدة عن ميدان تخصصه، وفات هؤلاء الشباب أن فروع اللغة العربية كأجزاء البنيان المرصوص يشد بعضها بعضًا، وكأعضاء الجسد الواحد إذا فسد أحدهما انتقل الفساد إلى سائرها، وإن ما يسمى «بالتخصص الدقيق» لا يتأتى إلا بعد أن يحيط الدارس بفروع اللغة كلها، بل بالأخذ بطرف قوى مما نسميه الثقافة العامة ورحم الله أسلافنا فقد كانوا على وعى كامل بهذا، فكنت ترى الفقيه لا يستقيم له منهجه فى الفقه إلا إذا تعمق دروس النحو والأدب والبلاغة، حتى الطبيب أو النباتى لا يبرز فى فنه إلا بعد أن تجتمع له سائر العلوم مهما بدا بعدها «الظاهرى» عن تخصصه، وقد كان ابن رشد الأندلسى فيلسوفًا طارت شهرته بهذه الصفة، وهو مع إحاطته الكاملة بالفلسفة الإغريقية والإسلامية لا يرى، بأسًا فى أن يكتب فى الفقه كتابًا مثل «بداية المجتهد» تقرؤه فتظن أنه لم يكن له هم إلا هذا العلم. ويكتب فى الطب كتابًا مثل «الكليات» فكأنه أفرغ جهده كله فى هذا الفرع من فروع المعرفة.

كان هذا من أول ما تعلمناه من أستاذنا الدكتور شوقى ضيف، ولم يكن ذلك من خلال عمله فى التدريس فحسب، وإنما قدم لنا القدوة فيه بجهوده فى التأليف، فالذى يتأمل هذه الجهود، يروعه ذلك الإنتاج بغزارته وتنوعه وجودته فى آن واحد، فلشوقى ضيف عشرات من الكتب تستوعب كل فروع العربية من القراءات القرآنية، والتفسير، إلى البلاغة، والنحو، والنقد الأدبى، والتراجم، وتضم التأليف الخالص إلى تحقيق نصوص التراث، هذا فضلًا عن مجموعة تاريخ الأدب العربى التى أخرج منها حتى الآن سبعة مجلدات ضخمة تحيط بتاريخ الأدب العربى من العصر الجاهلى حتى بداية نهضتنا الحديثة، فإذا ضممنا إلى هذه المجلدات عديدًا من الكتب المفردة التى ألفها فى دراسة أدبنا الحديث، والمعاصر، أو فى دراسة شعراء

بأعيانهم مثل شوقى والبارودى، رأينا أن حلقات عمله فى تاريخ الأدب العربى فى مشرقه ومغربه قد اكتملت، وأن مجموع هذا الانتاج يمثل موسوعة كبرى، ربما استكثرت على جيل، أو فريق من الباحثين، فما بالك وهى جهد رجل واحد أخلص للعلم فأخلص له العلم، وأحسن جزاءه.

الحديث عن شوقى ضيف، وتتبع إنتاجه فى مختلف ميادين الثقافة العربية لا تكفى فيه هذه العجالة، بل ربما احتاج إلى مؤلف كامل، ولهذا فإنى سأقصر حديثى هنا على مكان الدراسات الأندلسية من إنتاج هذا العالم، إذ أن له دلالته مع أنه لا يمثل إلا جانبا صغيرًا من اهتمامات شوقى ضيف.

الفن ومذاهبه فى الشعر والنثر:

ولعل أول صلة له بالأدب الأندلسى بدت فى كتاب من أول كتبه، وهو «الفن ومذاهبه فى الأدب العربى»، وكان فى الأصل رسالته التى نال بها الدكتوراه سنة ١٩٤٣، بإشراف الدكتور طه حسين، ثم طبع فى سنة ١٩٤٥، وما زالت طبعاته تتوالى إلى اليوم، والكتاب يقوم على أساس فكرة حاول الدكتور شوقى ضيف بها أن يفسر تطور الفن فى الشعر العربى، خلال مراحله المتتابعة فهو يرى أن الفن برزت له ثلاثة مذاهب متعاقبة: الصنعة ويمثلها فى الجاهلية زهير بن أبى سلمى و«مدرسته» من عبيد الشعر المنقحين له، ثم التصنيع ويمثله فى العصر العباسى الأول أبو تمام، وأخيرًا التصنع وهو الذى انتهى إليه شعر المتنبى وأبى العلاء المعرى، وفى سنة ١٩٤٦ يصدر شوقى ضيف كتابه الذى يكمل به دراسته للأدب العربى وهو «الفن ومذاهبه فى النثر العربى» ويطبق فيه نظريته السابقة على النثر متتبعًا هذه المذاهب فيه، وفى كلا الكتابين أفرد المؤلف فصلين للحديث عن شعر الأندلسيين ونثرهم، فرأى أن أهل الأندلس كانوا يعيشون على تقليد النماذج الشرقية، ومحاكاتها فى صورة من الاضطراب والاختلاط، فكان الشعراء والكتاب يجمعون فى نتاجهم بين صور المذاهب المختلفة.

الرد على النحاة:

ولم تمض على صدور هذا الكتاب الأخير سنة واحدة حتى كان شوقى ضيف، يخرج بطرفة جديدة كانت هذه المرة تحقيقًا لنص أندلسى، وفى ميدان مختلف عن ذلك الذى بدا وكأنه «تخصصه» الأول ونعنى بهذه الطرفة «كتاب الرد على النحاة» لقاضى الجماعة على عهد دولة الموحدين أبى العباس أحمد بن عبد الرحمن المعروف بابن مضاء القرطبى (المتوفى سنة ٥٩٢هـ-١١٩٦م). وقد كان هذا الكتاب - على صغره - يمثل أكبر ثورة على سيبويه ونحاة المشرق، فقد سدد ابن مضاء سهامه إلى نظرية «العامل» التى تعد الأساس الذى قام عليه

البناء النحوى وما تصوره النحاة لعواملهم، من تأثيرات هى التى تصنع الظواهر النحوية من رفع ونصب وجر، ثم ما تؤدى إليه تقديرات وعلل وأقيسة. ملأت النحو العربى بمسائل لا يحتاج إليها فى تقويم اللسان، بل تقف حائلاً بين المتعلم واكتساب ملكة لغوية سليمة، ورأى ابن مضاء أن نظرية العامل هى التى ملأت كتب النحو بحشد من التمارين غير العملية، إذ هى قائمة على فروض لا تتحقق فى واقع اللغة على أن ابن مضاء لم يكن فى كتابه هذا مجرد هادم للنحو، ولا داعيا إلى إلغائه، وإنما كان هدفه هو تيسير القواعد للمتعلمين وإعفاءهم مما لا يحتاجون إليه، فإن تفريغ المسائل والإكثار من التقديرات القائمة على التخييل كثيرًا ما تصرف المتعلم، عما هو أساس قريب المنال، وقد تنبه الدكتور شوقى ضيف فى ذكاء إلى أن المنطلق الفكرى لابن مضاء فى ثورته على نظرية العامل وما يرتبط بها من أقيسة وعلل إنما هو أخذه بالمذهب الظاهرى، الذى ينكر فى الفقه ما أخذت به المذاهب المعروفة من اعتماد على القياس، وهو ما أدى أيضًا فى التشريع إلى وجود ركام هائل من الفروض التخييلية التى لا تستند إلى واقع الحياة.

أثار هذا الكتاب الذى قدم له شوقى ضيف بدراسة جامعة دقيقة اهتمام الباحثين، بل فجَّر قضية كبرى مرتبطة بواقع حياتنا اللغوية التى نعانى فيها من تدريس النحو، وما نلاحظه فى مدارسنا من نفور المتعلمين من هذه المادة، ثم من عجزهم عن استيعاب القواعد النحوية حتى أصبح معظم من ينطقون بالعربية أو يكتبون بها لا يكادون يسلمون من اللحن والخطأ.

قضية تجديد النحو:

ولعل هذه القضية هى أهم ثمرة جناها شوقى ضيف من تحقيقه لكتاب هذا النحوى الأندلسى، صاحب تلك الدعوة الثورية الجديدة، فقد حملته أثناء ممارسته لتدريس النحو فى الجامعة على مدى سنوات طوال على أن ينعم النظر فى مشكلة النحو وتعليمه للنشء، وهى مشكلة كانت - وأخشى أن أقول وما زالت - تقض مضاجع المربين.

وكانت قد تألفت لذلك لجنة فى وزارة المعارف (التربية والتعليم) قبل ظهور كتاب ابن مضاء، وكتبت هذه اللجنة تقريرًا ضمنته مقترحاتها لتيسير النحو، ودرس مجمع اللغة العربية هذه المقترحات سنة ١٩٤٥ وأقر بعضها، ولكن الكتب التى ألفت على أساسها لم تلق كثيرًا من النجاح، ورأى شوقى ضيف أن ينهض أيضًا بهذه المهمة على ضوء آراء ابن مضاء، فاقترح فى الدراسة التى مهد بها لتحقيقه للكتاب تصنيفًا جديدًا لأبواب النحو يستغنى فيه عن عدد منها مما لا حاجة للمتعلم به، مع إلغاء الإعراب التقديرى والإعراب المحلى فى الجمل، ثم الاستغناء عن إعراب كل كلمة لا يقدم إعرابها أى فائدة فى صحة نطقها، ومضى الدكتور شوقى ضيف

طوال السنوات التالية يعمق دراسته لهذا الموضوع ويقلبه على وجوهه إلى أن قدم فى سنة ١٩٧٧ إلى مجمع اللغة العربية - وكان قد انتخب عضوًا فيه فى العام السابق - مشروعًا لتيسير النحو على أساس ما عرضه فى مدخل كتاب ابن مضاء مع إضافة بعض الأسس الأخرى، وأقر مؤتمر المجمع فى سنة ١٩٧٩ معظم هذا المشروع بعد دراسته دراسة وافية، وأخيرًا أصدر كتابه «تجديد النحو» (دار المعارف ١٩٨٢) الذى يقدم مشروعه الكامل لتدريس النحو العربى بعد أن أضاف إلى الأسس السابقة أساسين آخرين: أولهما حذف الزوائد الكثيرة التى تعرض فى كتب النحو بغير حاجة ولا فائدة، إذ أنها تتصل بأحكام معقدة تعسر على الفهم أو تتعلق بصيغ نادرة أو شاذة، وثانيهما إضافة أبواب ضرورية تعين على تمثل الصياغة العربية وأوضاعها.

ولم يكتف الدكتور شوقى ضيف بهذا العرض النظرى المصحوب بأسلوب مقترح لتطبيقه، بل إنه قام بنفسه فى إحدى السنوات التالي بتجربة تدريس هذا المنهج فى الفرقة الرابعة بقسم اللغة العربية بكلية الآداب، وكان التقليد الجارى فى الكلية هو أن تُختارَ أبوابٌ من بعض كتب النحو القديمة تدرس للطلاب بكل ما احتوت عليه، وقد دلتنا التجارب على أنهم قد يحفظون هذه - وهى لا تمثل إلا شطرًا ضئيلاً من مجموع قواعد النحو - وقد ينجحون فيها، ولكنهم يظلون بعيدين عن أحكام تطبيقها تطبيقًا عمليًا مفيدًا، أما تلك السنة التى طبق فيها الدكتور شوقى ضيف منهجه فإنه عرض فيها قواعد النحو العربى كله بعد أن صفاها فى ضوء كتابه، واقتصر منها على ما ينفع الطالب فى تقويم لسانه، فإذا بالتجربة تنجح نجاحًا كبيرًا، وإذا بالطلاب ينفتح أمامهم من أبواب النحو ما كان مستغلقًا، ومازال خريجو هذه الفرقة يذكرون حتى اليوم أنهم استطاعوا بفضل المنهج الجديد أن يستوعبوا خلاصة النحو العربى كاملة فى سنة واحدة.

تحقيق النصوص الأندلسية:

لم يصرف الاهتمام بالنحو ومشكلات تدريسه شوقى ضيف عن مواصلة عمله فى خدمة الأدب، فقد توالت خلال هذه السنوات التى أعقبت نشر كتاب ابن مضاء دراساته العديدة حول الأدب الأموى، وما لاحظه فيه من مظاهر التجديد، وحول بعض الظواهر أو الشخصيات الأدبية المختلفة، على أنى أذكر أن الأندلس لم تغب عن باله فيما أخرج من تلك الدراسات، فقد كان من بينها كتابه الذى ظهر فى مجموع «نوابغ الفكر العربى» (بإصدار دار المعارف)، والذى أفرده لشاعر الأندلس الغنائى «ابن زيدون» ففى هذا الكتاب الذى يبلغ ١٢٠ صفحة، قدم دراسة جامعة على إيجازها عن هذا الشاعر بعد دراسة عصره وأحداثه، كما أنه

أفرد جزءا من البحث لأسلوب ابن زيدون النثرى المتمثل فى رسالتيه الجدية والهزلية، مذيلا الكتاب بمختارات من شعره وشرح مفصل لرسالتيه.

المغرب فى حلى المغرب:

على أن شوقى ضيف كان مؤمنا دائمًا بأن التراث الأندلسى الذى ضاع معظمه واندثر، لا يمكن أن تتم دراسته بمنهج علمى قويم إلا بعد بذل كل المحاولات الممكنة لاستنقاذ ما بقى منه، وتقديم هذه البقية محققة محررة، وكان فى هذه الأثناء يطبق هذا المبدأ أيضًا على الأدب المصرى، فشارك فى تحقيق أجزاء من «خريدة العصر» لابن العماد، ومن «المغرب فى حلى المغرب» لابن سعيد، وهى أجزاء تلقى ضوءًا كاشفًا على الأدب المصرى منذ فتح العرب لمصر حتى العصر الأيوبى.

ولعل عمله فى «المغرب» لابن سعيد الأندلسى هو الذى لفته إلى الأجزاء الخاصة بالأندلس من كتابه، ونحن نعرف أن المغرب كان موسوعة جغرافية تاريخية أدبية استغرق تأليفها أكثر من قرن من الزمان، فقد تعاقب على جمعها عدد من المؤلفين: بدأها الحجازى بكتابه «المسهب» ثم عمل على إكمالها آل سعيد متوارثين العمل فيها حتى انتهت إلى على بن موسى بن سعيد (المتوفى سنة ٦٨٥ - ١٢٨٦) وهو الذى أضاف إليها أجزاء أخرى متعلقة بالشمال الأفريقى وبمصر، أما الأجزاء الخاصة بالأندلس فقد كانت تمثل مشكلة بالغة الصعوبة والتعقيد، فقد أصابت عوادى الزمن، إذ فقد كثير من أوراقها، وما بقى منها كان قد تحول إلى أوراق متناثرة غير مرقمة ضم بعضها إلى بعض فى غير نظام، وأصاب ذلك أيضًا النسخة الأخرى التى عثر عليها من «المغرب» فى بلصفورة (بقرب سوهاج). وكانت بدورها أوراقًا أخرى متناثرة من نفس مخطوطة دار الكتب، وقد كان هذا الاضطراب والنقص مما صرف الباحثين عن نشر الكتاب، إذ اعتبروه قضية خاسرة ميئوسًا منها.

ومع ذلك فإن اليأس لم يتطرق قط إلى نفس شوقى ضيف، فعزم على نشر ما بقى من هذا الكتاب الجليل، ولا سيا بعد أن هداه البحث إلى ثلاث وسائل أعانته على إعادة ترتيب أوراق المخطوطة: الأولى ثلاثة فهارس احتفظت بها النسخة المخطوطة نفسها لتراجم الأعلام المذكورين فى المغرب، والثانية ماكتبه المقرى فى «نفح الطيب» حول حوار كتاب المغرب وترتيبها والثالثة كتاب مخطوط هو «رايات المبرزين وغايات المميزين» لابن سعيد نفسه، وقد تبين أن هذا الكتاب ليس إلا مختصرًا للمغرب قام ابن سعيد بصنعه، ليقدم إلى الوزير جمال الدين بن يغمور نائب السلطان المصرى، الملك الصالح نجم الدين أيوب فى مصر والشام، وكان لهذا المخطوط المحفوظ أصله بالأستانة نسخة مصورة اقتناها، أحمد زكى باشا (شيخ

العروبة) واستقرت فى دار الكتب المصرية مع ما اشتملت عليه «المكتبة الزكية». وقد كان فى نية الدكتور شوقى ضيف أن يبدأ بنشر «رايات المبرزين» تمهيدًا لعمله فى المغرب، غير أنه حدث أن زار مصر فى سنة ١٩٤٩-١٩٥٠ المستشرق الإسبانى إميليو غرسيه غومس Emilio Gavcia Gomez فأبلغ الدكتور شوقى ضيف أنه كان قد اضطلع بنشر كتاب «الرايات» فى مدريد سنة ١٩٤٢ مع ترجمة إلى الأسبانية ودراسة مهد بها للكتاب، وزاد على ذلك أن أهداه نسخة من هذه الطبعة للكتاب، وكان فى وسع شوقى ضيف أن يمضى فى تحقيقه ونشره للكتاب لاسيما بعد أن رأى فى طبعة غرسية فومس على الرغم من اجتهاده وعنايته بالنص كثيرًا مما يستدرك، ثم أن كتابًا عربيا مطبوعًا فى مدريد آنذاك ما كان ليصل ولا يعرف فى العالم العربى، غير أن شوقى ضيف بما فطر عليه من السخاء والتسامح والإيثار أبى إلا أن يعدل عن نشر الكتاب، بل أنه أهدى المستشرق الإسبانى المخطوطة التى استنسخها لنفسه من الكتاب، ورأى إتمامًا للفائدة أن ينشر فى مجلة كلية الآداب (مجلد مايو ١٩٥١) ما رآه من تصويبات واستدراكات على الطبعة الإسبانية، ولما كانت هذه الطبعة متعذرة المنال فى الشرق العربى فإنه أوصى بعد ذلك أحد تلاميذه وهو المرحوم الدكتور النعمان عبد المتعال القاضى بأن يعيد نشر الكتاب فى مصر، واضطلعت بذلك لجنة إحياء التراث بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية فى سنة ١٩٧٣، وكان من الطبيعى أن ينتفع الدكتور النعمان القاضى بتصويبات الدكتور شوقى ضيف.

أما كتاب المغرب فقد عكف عليه أستاذنا الجليل يعيد ترتيب أوراقه حتى استقام له ذلك إلا مالم يكن هناك سبيل لاستدراكه فيما فقد من أوراقه، وقد كان من حظ كاتب هذه السطور أن شهد عن كثب ذلك العمل المضنى الذى استغرق شهورًا، فقد كان أشبه بترميم أثر فتكت به يد الزمن فأحالته إلى فتات متناثر، ثم أتت بعد ذلك عملية التحقيق وكانت لا تقل عن سابقتها مشقة، وصدر الكتاب أخيرًا ما بين سنتى ١٩٥٣ و١٩٥٥ فى سفرين كبيرين يضمان أكثر من ألف صفحة، والحقيقة هذا الكتاب يعد نموذجًا يحتذى للدقة والإبلاغ فى إفادة الدارس، فليس فيه علم ولا علم جغرافى إلا وهو مشفوع بقائمة من المصادر المخطوطة والمطبوعة لا يكاد يند عنها شيء، وهو بذلك يوفر على الباحث جهدًا كبيرًا إذ دله على كل ما يمكن أن يستكمل منه بحثه، أما قيمة الكتاب فيكفى أن قتطف حولها ما ذكره فى تقديمه للكتاب: «وما أشك فى أن هذا النص سيدفع المؤرخين للشعر الأندلسى دفعًا إلى أن يعيدوا النظر فى تاريخهم، وما نشروه من أحكام فيه، فيعدلوا فى هذه الأحكام تارة، ويلغوها ويثبتوا موضعها أحكامًا جديدة تارة أخرى، ومعنى ذلك أنه يحمل كثيرًا من الحقائق الأدبية التى كنا نجهلها عن الأندلسيين وحياتهم الفنية وما أكثر ما نجهله عنهم! ومن أجل ذلك تشتد الحاجة إلى أن تنشر كتبهم وآثارهم ولا يختلف اثنان فى أن ما نشر عن الأندلس لا يزال قليلا، وإن نشر أى نص جديد يسد

فراغًا كبيرًا لما يذيعه من معان وخصائص أدبية ولما تفتقر إليه المصنفات المنشورة من نصوص أخرى، تسندها وتقوم ما فيها من خلل ونقص.

هذا الكتاب يعدّ فى الحقيقة رائدًا للحركة التى بدأت منذ منتصف الخمسينات لتحقيق النصوص الأندلسية على أسس منهجية قوية، ويسعدنى أن أعترف بأن كل من عملوا فى هذا الميدان بعد ذلك من أمثال الدكتور إحسان عباس، وكاتب هذه السطور وغيرهما من تلاميذ شوقى ضيف - سواء أكان ذلك بطريق مباشرة أو غير مباشرة - فإنهم قد اتخذوا من تحقيق «المغرب» نموذجًا ومثالاً يحتذونه ويسيرون على هديه.

نقط العروس والدرر فى اختصار المغازى والسير:

وقبل أن يظهر كتاب المغرب ينشر شوقى ضيف بعض الآثار الأندلسية الصغرى - ونعنى بصغرها هنا الحجم لا القيمة - فمنذلك تحقيقه لرسالة «نقط العروس» (فى مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة المجلد١٣ - سنة ١٩٥١) وهى على صغرها (إذ تبلغ نحو خمسين صفحة) من أنفس النصوص الأندلسية وفيها يسجل ابن حزم طرفًا ونكتًا من أخبار الأندلس التى لا توجد إلا فيه، ويكفى أن نذكر أن مؤرخ الأندلس الأكبر ابن حيان القرطبى لا يكف عن التقاط هذه الأخبار التى اشتملت عليها الرسالة، وإيرادها فيكتابه اعترافًا بقيمتها وتقديرًا لمكانة مؤلفها الذى كان أبوه أحمد بن سعيد بن حزم وزيرًا للمنصور بن أبى عامر وثيق الصلة بدولته مطلعًا على بواطن أخبارها، وقد كان المستشرق الألمانى زابيولد Seybold نشر هذا النص من قبل فى مجلة كانت تصدر بغرناطة سنة ١٩١٧، غير أن الدكتور شوقى ضيف عثر على مخطوطة أخرى للرسالة تحتوى على زيادات كثيرة فضلا عن كونها موثقة إذ هى برواية الحميدى صاحب «جذوة المقتبس» وتلميذ ابن حزم، فرأى أن يعيد نشر النص على أساس هذه المخطوطة، مع تصويب ما وقع فيه المستشرق الألمانى من أخطاء.

رأينا كيف كان شوقى ضيف بحسه الذكى، ونظرته الثاقبة، يهتدى فى تحقيقه للنصوص الأندلسية المخطوطة التى هى أنفس الذخائر فى النحو والأدب والتاريخ، على أنه لم يهمل الثقافة الدينية الأندلسية، فإذا به يعثر فى سنة ١٩٦٦ على نص آخر بالغ القيمة هو كتاب «الدرر فى اختصار المغازى والسير» للفقيه للمحدث الأندلسى ابن عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمرى (المتوفى سنة ٤٦٣ - ١٠٧١)، وكانت نسخته المخطوطة الوحيدة - آنذاك - محفوظة فى دار الكتب المصرية، وهى نسخة قديمة نفيسة تملكها الزبيدى اللغوى وعليها تعليقات للعلامة للمؤرخ شمس الدين السخاوى، وقد اضطلعت بنشر الكتاب لجنة إحياء التراث الإسلامى بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ثم وقعت للدكتور شوقى ضيف مصورة عن نسخة مخطوطة

أخرى فى الخزانة العامة للرباط، وهى على تأخر تاريخ نسخها تتميز ببعض الزيادات، ومن أجل هذا أعاد الدكتور شوقى ضيف طبع هذا الكتاب فى سنة ٧٣

والكتاب مختصر للسيرة النبوية مبنى فى الأساس على سيرة محمد بن إسحق، ولو أنه يضيف إليه روايات أخرى من كتابى موسى بن عقبة وأحمد بن زهير بن حرب (ابن أبى خيثمة) ومن روايات أساتذته من رجال الحديث بالأندلس، ويلاحظ أن الروايات المحتفظ بها فى الأندلس. لا تتفق دائما مع روايات المحدثين المشارقة،وإن كان ذلك لا يعنى عدم صحتها، فهناك اتفاق على أن لأهل الأندلس فى الحديث غرائب لم يعرفها كثير من المحدثين بالمشرق مع اعتراف بجلالة حفاظ الأندلس، ولهذا فإن هذه السيرة التى تلتقى فى كثير من تفاصيلها مع كتاب «جوامع السيرة» لابن حزم معاصر ابن عبد البر وصديقه تمثل لنا طريقة الأندلسيين فى رواية السيرة النبوية، وقد بقى اعتزاز الأندلسيين برواياتهم التقليدية حتى من هاجر منهمإلى الشرق أو استقر فيه، ويدل على ذلك أن سيرة ابن سيد الناس اليعمرى (المتوفى سنة ٧٣٤)، وهو مصرى من أصل أندلسى يتكئ فى رواياته على كتاب ابن عبد البو ويقدم لنا استمرارًا لذلك التقليد الأندلسى فى رواية السيرة، ومن هنا أتت أهمية هذا الكتاب الجليل الذى أهداه شوقى ضيف لمكتبة السيرة النبوية.

تاريخ الأدب الأندلسى:

ونأتى فى النهاية إلى هذا الكتاب الذى توج به شوقى ضيف جهوده فى ميدان الدراسات الأندلسية وهو المجلد السابع من مجموعة تاريخ الأدب العربى (عصر الدول والإمارات) وقد كان هذا آخر ما أصدره الدكتور شوقى ضيف سنة ١٩٨٩.وهو ثمرة لإعداد طويل واستيعاب لكل ما أخرجته المكتبة العربية من نصوص ودراسات حول الأندلس منذ سنة ١٩٥٠ حتى اليوم، وجدير بالذكر أن حركة نشر النصوص والدراسات حول الأندلس قد نشطت كثيرًا خلال هذه السنوات الأخيرة، ولهذا فإن الدكتور شوقى ضيف لم يشأ أن يتعجل الكتابة فى تاريخ الأندلس الأدبى مع أنه كان قادرًا على ذلك منذ أخرج كتاب «المغرب»، بل آثر أن يمعن الاطلاع على كل ما نشر عن الأندلس فى هذه السنوات حتى يصدر كتابه على نحو ما صدرت به كتب مجموعته فى تاريخ الأدب من الدقة والاستقصاء.

ولسنا نبالغ إذا قلنا إن هذا الكتاب هو أجمع كتاب فى تاريخ الأدب الأندلسى صدر حتى الآن، صحيح إن محاولات عديدة سبقته إلى ذلك، ولكنها محاولات كانت قاصرة: إما على عصر من عصور هذا الأدب أو على ظاهرة من ظواهره أو شخصية من شخصياته، أما الكتاب الجامع

المجمل لتاريخ الأدب الأندلسى هو أول ما يعالج هذا الميدان ويسد الفراغ فى مكتبتنا الأدبية حوله.

والكتاب يلتزم بنفس المنهج الذى اتبعه شوقى ضيف فى كتب مجموعته، فهو يبدأ بفصلين تمهيديين، الأول عن الأحوال السياسية والاجتماعية للبلاد، والثانى عن الثقافة بوجه عام، وفيها يقدم لنا خلاصة محكمة لأوضاع الأندلس فى هذه الميادين. والفصل الثالث دراسة مجملة للشعر والشعراء، وفيه يتحدث عن تعرب الأندلس وخصوبة بيئتها الشعرية، ثم يختص بدراسة الفنين اللذين كانا من ابتكار الأندلسيين وهما الموشحات والأزجال وهو هنا يطيل مناقشة المستشرقين الاسبان حول مسألة انتشار اللغة العجمية (لطينية الأندلس) بين المسلمين الأندلسيين، وحول ما يذكره هؤلاء المستشرقون ومن أهمهم خوليان ريبيرا، وغرسيه غومس حول أصول الموشحات و عروضها، وحول الخرجات العجمية التى ينتهى بها عدد من الموشحات، وهو ينتصر للأصول العربية الشرقية للموشحة وينفى تأثرها بالعجمية وعروض الشعر الرومانسى.

أما الفصل الرابع فهو مفرد للنثر وفيه يدرس الدكتور شوقى ضيف ألوانا من الفن النثرى: الرسائل الديوانية والإخوانية أو الشخصية والأدبية ثم طائفة من المؤلفات المتميزة مثل طوق الحمامة لابن حزم ونثر ابن حيان المؤرخ فى كتبه.

الكتاب فى جملته أوفى دراسه للأدب الأندلسى. والدكتور شوقى ضيف بخبرته الطويلة وذوقه المرهف، يعرف كيف ينتقى من هذا الركام الأدبى الأندلسى خير ما فيه.

هذا جانب واحد من جوانب نتاج أستاذنا الدكتور شوقى ضيف، ولعله أقل الجوانب نصيبا من اهتمامه فى تاريخ الأدب العربى بحكم حجم الأدب الأندلسى بالنسبة لآداب العرب، ومع ذلك فعنايته بهذا الجانب لا تقل عن عنايته بسائر ما عالجه الدكتور شوقى على طول مسيرته العلمية والأدبية.

أ. د. محمود على مكى
أستاذ الأدب الأندلسى
قسم اللغة العربية
كلية الآداب - جامعة القاهرة